من دروس البادية

محنة الرجـــولة

للأستاذ أديب عباسى

مرت السنون وتصرمت الأعوام ، والأمير الكبير يلتمس رحمة المولى ويرتقب جداه ليهبه وارثاً من صلبه . يرث اسمه ويخلد ذكره ، وينتهى اليه ماله وجاهه . بيد أن الأيام كانت كلها سواء فى إذهاب الرجاء وتخييب الأمل ، وأوشك الأمير أن يُصفى ولما يجئ الوارث المرتقب

غير أن المولى افتقد الأمير فى سنة من سنى يأسه ، وحملت زوجته بعد طول الخيبة ، ووضعت طفلة أسماها (سلافة) . ولم ييأس الأمير أو يبتئس إذ كان الوليد أنثى ولم يكن ذكراً . وماذا كان يرجو من الأيام ليبتئس بعد أن خاصمته فى آماله وتجهمت له هذه الأعوام الطوال ؟

ونشطت عواطف الأبوّة قوية جائشة بعد طول الكبت وغياب الحافز ، وهبّ الأب يريق على الصغيرة من عطفه وحبه ما صيرها سلواه وكل أمله فى باقى حياته

وشبت الصغيرة كما تشبُّ بنات البادية غضة نضيرة ، بقامة هيفاء وصحة مترعة ؛ هذا إلى ما حباها الله وأفردها به افراداً من جيد أغيد ، وثغر أبلج ، ووجنتين تفيضان بالحياة وتنضحان البشر نضحاً ، إلى جبين مشرق نبيل يكلله ويزينه فرع أثيث وحف ، ثم ما تجمع جميع ذلك النور والسحر فى مجتمعين للنور والسحر ، ومن ثمّ كل ذلك الفيض فيهما من الفتنة القاسرة والقوة الآسرة

هذا ، ولم يدع الأمير وسيلة من وسائل التهذيب التى تيسرها البادية إلا اصطنعها فى تهذيب (سلافة) ، حتى غدت إذ شبت فتنة البادية ، وحديث المجالس ، ومدار الهواجس ، ومطاف الأحلام فى صدور الشباب . وذاعت شهرة الأميرة فى طول البلاد وعرضها ، وتواصفها الأمراء والأشراف ، وأخذت تحوم حولها الأنظار ، ويهطع اليها الخيال من جميع نواحى الطموح فى البادية

بيد أن الأمير اشترط على الخطاب الطامعين أن يجوزوا امتحاناً يعدُّه لهم ، ومن يفز فيه فاز بفتاته وأضحى الوارث الشرعى له فى أمارته . وأما من فاته الفوز وخانه التوفيق فيتلقى عقابه لوعةَ الحرمان ومرارة الفشل ، ومائة جلدة وجزّ شعر الناصية ؛ وأباح الأمير امتحانه هذا كلَّ طامح بلا تفريق فى الجاه أو المال أو الشهرة أو خلافها من وسائل التميز

وخشيت (سلافة) ، مع هذه المساواة التامة بين الخاطبين ، أن يجوز الامتحان غيرُ كفء ، وغير من تهوى وتحبُّ ، وقد يكون الفائز صعلوكا من صعاليك البادية ، أو ذئباً من ذؤبانها ؛ وقد يكون أسود بغيضاً مرخى المشافر واللحيين ؛ وقد يكون فتىً مخنثاً فاتر العزم ، باهت الرجولة ؛ وثمّة فالموت أهون عليها وأعذب

فاتحت أباها فيما يساورها من مخاوف ويدب اليها من ريب ، ولكن أباها الأمير طمأنها وأكد لها أن امتحانه لن يجوزه غير كفء ، وأنها سوف تحمد له عاقبة هذا التدبير الذى يدبر

* * *

جاء الخاطب الأول ، وكان زعيما ذائع الشهرة كثير المال ، شريف المنتسب ، حسن البزّة والمظهر ، وجاء يسوق بين يديه عديد الهدايا وأنواع الطرف ، وقدمها وسيلة للأغراء والزلفى ، وحلَّ ضيفاً كريماً على الأمير بعد أن كشف عن غرضه ومبتغاه

واستقبله الأمير — كعادته مع جميع الأضياف — مرحباً مؤهلا ، ثم عمد إلى خير نياقه وأعزها عليه وعقرها ثم نحرها أمام البيت ، ودعا إلى الوليمة أدنى من فى الحى ؛ وبعد أن نال الجميع من الطعام إلى حد الشبع ثم أديرت القهوة التفت الضيف الخاطب يخاطب الأمير :

أى أميرنا العزيز ! لقد جئناك فى (سلافة) درة البادية ، وفتنة العقول ، وغاية السول ؛ فماذا ترى أن تضع بيننا من الحواجز ، وماذا ترى أن تقيم بيننا من العقبات ؟ لقد ملأ نفسى ذكر فتاتك ، ولست بعائد ومؤيدى بعد الله همتى إلا بها

فأجاب الأمير : على رسلك يا ضيفنا العزيز ! إن ضيفنا يقيم بيننا أياما عشرة ، ثم يكون الامتحان ، وعندها إما (سلافة) له ، وإما المائة جلدة والشعر المجزوز

ولم يسع الخاطب الطامح إلا الاذعان والصبر حتى يحل اليوم الموعود

وفى صبيحة اليوم التالى عمد الأمير إلى ناقتين من خير نياقه ليجزرهما كاليوم الفائت ، وهنا أراد الضيف الخاطب أن يعارض الأمير ويمنعه أن يعقر ناقتيه محتجاً بأن فى جزور البارحة الكفاء وأن نحرهما إسراف وإتلاف المال لا مبرر لهما . إلا أن أميرنا لم يجبه بشىء ومضى يعقر الناقتين ويجزرهما وبعدُ الوليمة ، وعند الظهر أقبل المدعوون من أدنى الحى وأواسطه وتناولوا الطعام مع ضيف الأمير . ومضى الأمير يفعلها كل صباح ويزيد العدد المنحور ناقة ناقة إلى اليوم العاشر ؛ ومضى الضيف يزداد لجاجة فى الاحتجاج وإلحافاً على الأمير أن يقتصد فى ماله فلا يتلفه هذا الاتلاف ، ولكن بلا جدوى

وتقدم الضيف بعد اليوم العاشر يطلب إلى الأمير أن يجرى امتحانه ، فلقد طال ثواؤه وعيل صبره وانتقده أهله ، ولكن كم دهش وكم حلّ عزمه اليأس والخيبة إذ فاجأه الأمير :

أى ضيفنا ! يعزُّ علينا أنك خسرت الرهان وفاتك الفوز ، فلتذعن إذا لجزائى المفروض وتستكن

عندها أجاب الخاطب المحنق محتجاً بأنه لم يجر عليه امتحان ليعد فاشلاً يستحق العقاب ، وطلب إلى الأمير أن يفسر له مايدعى إن يكن يروم الاقناع بالدليل والبرهان ، ولكن الأمير أصرّ على أنه خسر الرهان وأن ليس حاجة إلى التفسير ثم أشار إلى غلمانه أن يتسلموه . . .

وقام صاحبنا ينكث أذياله وغادر الحى بناصية مجزوزة ، ومائة أثر فى ظهره لسائة جلدة ، وصدر يغلى بالحقد ومرارة الفشل ، واعتقاد جازم أن بصاحبه الأمير لمّا أو لماماً إن لم يكن ذا جنة وخيال

وذاع أمر المحنة والجزاء ثم ما أصاب أول الخاطبين من جز الشعر والضرب الأليم . إلا أن ذلك لم يؤيس الخطاب بادىء الأمر ولم يمنعهم من الوفود على الأمير علهم ينجحون من حيث فشل صاحبهم . على أن نصيبهم لم يكن بخير من نصيب أولهم ، فكلهم كان يعود باللمة المجزوزة والظهر المجلود ، ولولا أن الأمير كان برجاله وفروسيته عزيز الأبطال لكان لهم معه شأن غير ذلك الشأن ، ولنالوا منه بحد السيف ما فاتهم بالامتحان

وبعد الفشل التوالى الذى منى به عديد الخطاب تجافى الخاطبون مضارب الأمير وعافوا الوفود عليه خاطبين ، إلا فتى شريفاً جاء من أطراف البادية وآلى ألية ليننالنّ سلافة أو يقتلن أباها ويريح البادية من عتوّه أو يهلكن على حد السيوف دونهما

ولم ير فتانا أن يثقل كاهله بنفيس الحال وغالى الثياب ، ولم يسق بين يديه الهدايا والطرف ، واكتفى بزة بسيطة وتخفف من كل ما يحمل المسافر إلا سيفه القاطع وبعض الزاد ، وسار يغذُّ السير أياماً إلى أن وافى الأمير وحل ضيفاً عليه وأبان غايته من الوفود عليه

وشرع الأمير كدأبه مع جميع الخاطبين ، ينحر الجزر يوماً بعد يوم والفتى صامت لا يعترض ولا يجادل ، ولا يتكلم إلا حيث يجمل الكلام ، ويصمت حيث يجب الصمت

وقد اجتذب فتانا بحسن سمته وقلة حديثه عن نفسه أنظار القوم وأيقنوا بأنه فتىً يختلف أبين الاختلاف وأشذه عن بقية الخطاب ، فلا ظهور ولا إدلال بالجاه ولا غرور ولا شىء من ذلك الذى كان يُضيفه أولئك الخطاب إلى شخوصهم ليتقربوا به زلفى إلى الأمير . هذا إلى رجولة صريحة وفكر موزون ونبل ظاهر . وصار همّ الجميع أن يجوز الفتى الامتحان المقيد ليكون هو وارث أميرهم والمؤمر عليهم بعده

وبلغت أوصاف الفتى وذكر شمائله خدور النساء ، وأضحى اسمه لديهن ملء الأفواه والأسماع . ولم تكتف سلافة بالسماع وكثيراً ما يفتن ، وأرادت أن تشاهد هذا الفتى الموصوف وترى هل يصدّق الخبر عنه الخُبرُ أو لا يصدّق . وانتحت ناحية خفية من بيت الأمير الواسع وأخذت تتقرى الرجال وتتفرّس فى الملامح وتصغى إلى الحديث ، إلى أن وقع بصرها على الفتى الموصوف . . . .

وفجأة شعرت أن قلبها يخفق أكثر مما اعتاد أن يخفق ، وخيّل إليها كأن رئتيها لا تتسعان لكل ما تريد أن تدفعه إليهما من الهواء ، وشعرت كذلك كأن هذا الفتى قليل الكلام يتحدث إليها ويخاطبها أعذب الخطاب ... وخشيت إن هى بقيت حيث هى أن يشى بها اضطرابها أو تنم عليها أنفاسها المتهدّجة ، ويعلم القوم أن فتاتهم الرصينة الخفرة قد خفّت ورعنت فجاءت تشهد خطابها خلسة من وراء السجوف ، فتركت مكانها وفى قلبها كالسهام من العواطف المتباينة المتأججة ، فتمّة هذا الحب

المفاجئ الذى أخذ عليها جميع مسارب الشعور ؛ وثم خشيتها أن يفشل الفتى فى الامتحان — إن يكن ثمة امتحان - وأخيراً إحساس قوى باللوم لهذا الأب المتعنت الذى لا يرضيه من الفتى ما رأى ورأى الجميع إلا أن يجوز الامتحان . وفى الحق لقد بدأ يخامر سلافته أن أباها إنما يصطنع هذه الأساليب الغريبة لينفر الخطاب وليبقيها عانساً يتأكلها الجوى ويغويها الحرمان . والحب — كما تعلم — إذا أحب حباً قوياً فقد التميز واختلطت عليه الأفكار ، ولا عجب إذن أن تنتهى فى أبيها الذى يعبدها إلى مثل هذا الرأى الغريب

* * *

حلّ اليوم العاشر وأوشك أن يزول ، فقام الأمير يوجه الحديث إلى فتانا وقال : أيها الفتى النبيل ، هل أنت مستعد لامتحانى أم أنت تخشى العاقبة فتعود سالماً لا لك ولا عليك ؟ فأجاب الفتى باختصار وحزم : إنى لعلى استعداد . وعندها أقبل الأمير على قومه يخاطبهم : أهنئكم يا رجالى بوارثى العتيد وأهنئ نفسى . ثم التفت إلى الفتى وخاطبه : أهنئ بك سلافة وأهنئها بك . فلأنت خير من يستأهلها يا بنى وهى خير من يستأهلك

ووجم الجميع إلا سلافة التى برزت من وراء الحباء [إذ كانت جاءت خفية لتشهد المحنة] وخاطبت إياها عابثة أو كالعابثة :

أى أبت ، كيف تتعجل وتسمّينى لهذا الفتى ولما يجز الامتحان بعد ؟ فهلا أبقيت ذلك لنرى مبلغ همته ومقدار رجولته التى سيتكشف لنا عنها فى ذاك الامتحان ؟

فأجاب الأب ، أى بنيتى العزيزة ، لقد حاز فتاك الامتحان من حيث لا يعلم ولا تعلمين . جاءنا هذا الفتى الشريف مستبهماً لم يسم نفسه قط ولم ينتسب ، ثم هو لم يحاول أن يدهشنا بثروته وجاهه وإن يكن له من ذلك الشىء الكثير (كما دلنى على ذلك العيون وعيناى) ، لقد جاءنا واثقاً من نفسه واثقاً أنه أهل لك دون أن يضيف الى شخصه الأسماء الكبيرة والمال الوفير والدعوى العريضة . ثم ألم يبلغك كيف لم يعارض ولم يجادل فيما حاولنا أن نتعرّه ونحرجه به من وسائل الاكرام ، شأن الخطاب الآخرين لنرى ما هو قدر نفسه عند نفسه ؟ ولو كان رأيه فى نفسه كرأيهم فى نفوسهم وإن حاولوا الظهور بخلاف ذلك ، لفعل فعلهم وناله مثل ما نالهم . ولكن هو المجتد الكريم يأبى ألا أن يظهر ويستعلن . ثم أليس فى سكوته دون الذى حاولنا من غمره بأسباب الاكرام ما يدل على أن فضيلة الكرم هى طبع فيه وسجية فلا يستهولها فى غيره ؟ أو لم يكن استهوال الخطاب الآخرين مظاهر الجود والكرم التى رأونا نتعرهم بها دليلاً لا يخطئ على أنهم ليسوا الكرام الذين يدعون ؟ أليس المقل من المال أو الشحيح هو الذى يستكثر أعطيات الناس ومظاهر جودهم ؟

ولم يبق بعد هذا التفسير من لم يقتنع بخطة الأمير الحكيمة وأسلوبه المبتكر فى امتحان الرجال . وفى اليوم التالى عقد الفتى على فتاته بين أشد مظاهر الغبطة والحبور . وقضيا حياة مديدة هى السعادة والهناء .

أديب عباسى

لجنة التأليف والترجمة والنشر

تاريخ الفلسفة اليونانية

للأستاذ يوسف كرم

المدرس بكلية الآداب

وهو إحدى حلقات السلسلة الفلسفية التى توالى اللجنة إصدارها ، وقد عرض المؤلف فى مقدمته للفكر اليونانى قبل الفلسفة ولهوميروس والأليادة والأديسة ولرأيهم فى الطبيعة والآلهة وللحكماء والشعراء الخ

ثم تكلم فى أبوابه المرتبة على الطبيعيين الأولين وعرض للنظريات المختلفة فى أصول الأشياء والنفس والتناسخ وشرح وحدة الوجود والعناصر الأربعة والجوهر الفرد والطبيعة وما بعدها ؛ فلم يدع شيئاً يهم الباحث والمتعلم . كما أن بالكتاب تراجم مفصلة للفلاسفة ، وقاموساً نافعاً للأعلام والألفاظ الفلسفية ، وهو مطبوع بمطبعة اللجنة طبعاً متقناً على ورق جيد ويقع فى ٣٥٣ صفحة وثمنه ٢٠ قرشاً

ويطلب من اللجنة بمقرها ٩ شارع الكردانى بعابدين بمصر ، ومن المكاتب الشهيرة